ولم تصمت شهرزاد

إشكالية خطابها اليوم

نازك سابا يارد

شغلت المرأة منذ القدم مخيّلة الشعوب. ألّه السومريون والبابليون عشتار وآرورا، والفراعنة إيزيس، ثمّ ألّه اليونان والرومان أثينا وأفروديت. وحاك الفينيقيون أساطيرهم حول بطولة إليسا وأوروبا، واليونان حول إخلاص بينيلوب. ثمّ جاءت المسيحية لتحيط مريم بهالة من القدسية، والإسلام ليحفز روحانية رابعة العدوية. ولكن في مقابل المرأة الإلهة والبطلة والقديسة تقدَّم لها قصة حواء التي كانت السبب في طرد الإنسان من الجنة، وأسطورة ميديا التي قتلت أخاها ثم ولديها. ففي هذا الخطاب نجد أن المرأة اعتُبرت إما قدّيسة أو شيطاناً. واليوم تشغل المرأة الأفكار والكلام أكثر مما كانت تشغل من قبل، يتناولها خطاب السياسيين والحقوقيين ورجال الدين، خطاب علماء الاجتماع وعلماء النفس، خطاب الأدباء والشعراء، خطاب الرجال والنساء العاديين.

ولألقي بعض الضوء على الخطاب المتداول اليوم حول المرأة اخترت روايتين لبنانيتين معاصرتين: رواية كتبها رجل، هي «تصطفل ميريل ستريب» (٢٠٠١) لرشيد الضعيف، الأديب اللبناني من زغرتا، في شمالي لبنان، ورواية كتبتها امرأة، هي «مريم الحكايا» (٢٠٠٢) لعلوية صبح، من جنوب لبنان. وذلك لكي أقارن بين خطاب كل من الكاتب والكاتبة حول المرأة. إلا أن رواية علوية صبح ثلاثة أضعاف رواية الضعيف،

ولذلك سيكون ما يتجلّى فيها من خطاب حول المرأة أكثر تنوّعاً ممّا في كتاب الضعيف.

يجمع بين الروايتين أنهما تدوران، بالدرجة الأولى، حول المرأة اللبنانية، وأنهما، كلتيهما، رُويتا بصيغة المتكلم. فـ«رشود» هو البطل/الراوية في رواية رشيد الضعيف، ومريم هي البطلة/الراوية في قصة علوية صبح. وعليه نرى أن الرواية الأولى تعبّر بصراحة عن خطاب يتداوله رجل حول المرأة، فيما تعبّر الثانية عن خطاب تتداوله امرأة، سواء تناول خطابها النساء أم الرجال.

تقدّم الروايتان، ولا سيّما رواية علوية صبح، تصوّرات لرجال ونساء تختلف باختلاف بيئاتهم وتتباين بتباين هذه البيئات. تدور أحداث رواية الضعيف في المدينة، فنساؤه ورجاله بالتالي مدينيون من البرجوازية الصغيرة، فيما تدور أحداث رواية علوية صبح ما بين القرية والمدينة، فنساؤها ورجالها قرويو المنشأ والذهنية، لهم عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وأعمالهم، إلا أن بعض بناتهم انتقلن إلى المدينة مما غيّر حياتهن وعقليتهن، وهنا نجد بعض الفوارق بين الخطاب المتداول عن المرأة في الروايتين.

خطاب الرجل في الروايتين

لا غرابة في أن يكون خطاب القرويين عن المرأة في «مريم الحكايا» هو خطاب الرجل التقليدي الذي يتمثّل الرجولة في الفحولة والسلطة والسيطرة، وعليه لا يرى في المرأة سوى كائن يتحكّم به وأداة لممارسة الجنس والإنجاب، ولا سيّما إنجاب الصبيان. أراد عمّ فاطمة وخالها أن يزوّجاها حين كانت في العاشرة من عمرها، إذ كانت يتيمة الأب وكانت أمها قد تركت أولادها لتلحق بعشيقها. وحين هربت فاطمة رافضة الزواج ضربها عمّها الذي كانت في عهدته وأجبرها على أن تتزوّج. كانت تلعب باللعب مع إخوتها الصغار، وتهرب كلما رأت زوجها يخلع سرواله. تهرب من البيت ليلاً إذ كان خوفها من الزوج أكبر من خوفها من الليل، فأخذ يربطها كي لا تهرب. وكلما اقترب منها كانت تبكي وتصرخ. حين شكاها الزوج إلى عمّها وبّخها العم على نشوزها، وهي لا تفهم ما يقوله لها عن الجنس والمضاجعة.[1] ونصح العم والخال الزوج بضربها كي تحسّ أنه «رجّال. إذا المرا ما فزعت من الرجّال ما فيه ليها.»[2] ولم يخطر للزوج ولا للعم أن الفتاة طفلة لا تعرف شيئاً عن الجنس والمضاجعة، وأنها إنسان لها أحاسيس ومشاعر. في النهاية ربط زوجها يديها ومدّدها على الفراش فيما كانت تصرخ

(١) علوية صبح، مريم الحكايا، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢، ص ١٤٧-١٥٤.
(٢) المصدر السابق، ص ١٥١.

من الخوف، ودخلها،[٣] تماماً كما كان يدخل بقرته حين رفضت الطفلة في أوّل الأمر أن يضاجعها. لم يجد فارقاً بين الحيوان وزوجته، بل اكتشف لساعته أن أعضاء زوجته التناسلية تشبه تماماً أعضاء البقرة التناسلية، «فالبقرة برحمها ومهبلها ومشفريها مثل المرأة تماماً. واطمأنّ، فالمشفران يستقبلان العضو الذكري، وفي المهبل يتجمع سائله المنوي الذي يرحل صعوداً عبر عنق الرحم حيث تنتظره البويضة لعلّها تُلقّح وتتحوّل إلى جنين.»[٤] حتى بعد أن مرّت سنوات عديدة على زواجهما ظلّ حسن يضرب فاطمة، يمسكها من شعرها ويشدّها ويضرب رأسها بالحائط،[٥] كي لا تنسى أنه الرجل. وحين نزلا إلى بيروت وأرادت أن تسير إلى جانبه انتهرها وأمرها أن تمشي خلفه كي لا يسخر منه أولاد عمّه قائلين «أبو أحمد مشى مراته حدّه.»[٦] وكلما ولدت فاطمة بنتاً كان يزداد خوفها من هذا الزوج، إذ كان لهما ثماني بنات. وحين حملت بعد إنجابها البنت الثامنة هدّدها زوجها بأن يقتلها هي وبناتها إذا أنجبت بنتاً تاسعة، وحرّضها على الإجهاض. وحين أجهضت وكان الجنين صبياً جنّ جنون الزوج وشتمها، متناسياً أنه هو الذي كان قد حرّضها على الإجهاض.[٧]

أما أبو يوسف فلا يدعو زوجته إلا «حمارة» و«بهيمة» فيما يتغزّل بغيرها من النساء.[٨] فالمجال العام هو مجال الذكر، له السلطة والسيطرة والحقوق والحريات. فإن لم يستطع أن يمارسها في مجتمعاته القامعة يمارسها داخل بيته. فالرجل يشعر أنه وحده الآمر والناهي، وأنه وحده يفرض الشروط والقوانين على تصرّف نسائه، من زوجات وأخوات وبنات. وفي هذا الخطاب الذكوري يحقّ للرجل أن يتغزّل بمن يريد، وأن يضاجع من يريد، فالنظام ذكوري والذكر هو الآمر الناهي.

وطبيعي أن لا يعترف هذا الخطاب بأن للمرأة حق حريّة التصرف، حتى في قضايا يومية أو فيما يتعلّق بعقيدتها الشخصية. فوالد مريم وأخوها كانا يجبران الأم والأخوات على تغطية رؤوسهن؛ وحين رأى الأخ مريم في مظاهرة كاشفة عن رأسها ضربها حين عادت إلى البيت.[٩] وإذا خرجت المرأة على قواعد السلوك العام يكون مصيرها الموت، إما الحقيقي أو الوهمي. فنزيهة، خالة مريم، غرّر بها قوّاد بعد أن

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢.
(٤) المصدر السابق، ص ١٥٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٧٠.
(٦) المصدر السباق، ص ١١٤.
(٧) المصدر السابق، ص ١٧٥.
(٨) المصدر السابق، ص ٢٤١.
(٩) المصدر السابق، ص ٥٠–٥١.

وعدها بالزواج. أخلف بوعده وحوّلها إلى مومس، فشطب والدها وأخوها اسمها من سجلات الأحياء وادّعيا أنها ماتت. إلا أنهما كانا يقبلان الأموال التي كانت ترسلها إلى أسرتهما مع إصرارهما على أنها ميتة.[١٠]

فهل نجد أن خطاب الرجل الذي ليس قروياً يختلف عن خطاب الرجل القروي؟

رشّود في رواية «تصطفل ميريل ستريب» لم يكن قروياً من الجنوب، وإنما كان رجلاً متعلماً من سكّان بيروت. إلا أن خطابه هو أيضاً هو الخطاب الذكوري، خطاب الرجل التقليدي الذي لا يرى في المرأة إلا أداة للجنس وما يثيره جسمها من شهوة. فعلاقته بجميع النساء علاقة جنسية خالصة. نجد ذلك في قوله إنه يحبّ أن يخبر خطيبته أخبار غرامياته الجنسية السابقة كي «تفهم أنني لم أصل إليها على «الفينيش». وهو يصف مفصلاً مضاجعته لزوجته وطريقتها في الاستمناء، وكلامه مع زوجته ورفاقه لا يتناول سوى الجنس وأعضائه.[١١] لذلك يقول إنه لا يشعر أن زوجته له «إلا حين يكون فيها.»[١٢] والزوجة التي «أشبعها» زوجها جنسياً لا تعود تعترض على شيء، فالمرأة لا يمكن أن تهجر الزوج «الفحل».[١٣] ومن هذا المنطلق الذكوري التقليدي يعتبر البطل/الراوية أن الرجال قوّامون على النساء. فيؤكّد أنه «مهما تغيّرت الأزمنة... يبقى الرجل رجلاً والمرأة امرأة. وعلى المرأة دائماً وأبداً أن تستجيب لزوجها عندما يناديها، ويجب أن تطيعه في الأمور الحاسمة، حتى ولو كانت هذه الطاعة مكلفة نفسياً بالنسبة إليها.»[١٤] فيصف رشّود علاقات أصدقائه مع زوجاتهم اللواتي ينالهن الضرب إن لم يخضعن لهم،[١٥] تماماً كما ينال زوجات القروي الجنوبي في رواية علوية صبح. بناء على هذه النظرة إلى المرأة يقدّس البطل/الراوية المرأة الطاهرة، فيعتزّ بأن تقزّز زوجته من مائه وإصرارها على الاستحمام بعد المضاجعة برهان على «اعتبارها ما يرافق الجنس من إفرازات وسخاً» وهذا «دليل طهر في النفس.»[١٦] ويعرض مفصلاً رأيه في أهمية البكارة قبل الزواج، «فجسد الفتاة يجب أن يتسلمه الزوج كاملاً متكاملاً. هذه هدية ثمينة للزوج تظلّ تؤثّر فيه إيجاباً على دوام الأيام.»[١٧] ولذلك يثور على ما

(١٠) المصدر السابق، ص ٢١٧–٢٢٢.

(١١) رشيد الضعيف، تصطفل ميريل ستريب، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠٢، ص ١٦–٢٠، ٣٥، ١٣٦–١٣٧.

(١٢) المصدر السابق، ص ٤٣.

(١٣) المصدر السابق، ص ٥١.

(١٤) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(١٥) المصدر السابق، ص ٦٠.

(١٦) المصدر السابق، ص ٢٦.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٣٩.

يعتبره من تناقضات مجتمعنا الذي يقتل الفتاة محواً للعار، فيما ينشر إعلانات على قارعة الطرقات وفي التلفزيونات تشجع على استخدام الواقي الذكري.[١٨] ومع أنه يدّعي أنه يحبّ أن يساعد المرأة على الخروج من القوقعة التي وضعتها فيها التقاليد، إلا أنه في الوقت ذاته يحبّ أن تبقى المرأة محافظة على الحدّ الأدنى.[١٩] ولذلك يصدمه أن تطلب خطيبته البيرة من النادل مباشرة، بدلاً من أن توجّه طلبها إليه هو فيطلب عنها.[٢٠] ففي توجيه الخطيبة طلبها إلى النادل مباشرة يبدأ رشود يعي الفرق بين خطابه عن المرأة والواقع الذي تعيشه هذه المرأة. أما القارئ فيشعر أن رغبة الراوي في إخراج المرأة من «قوقعة التقاليد» لم تتعدَّ اللسان إلى رغبة تغيير مبدئي في موقفه من المرأة وحقها بالحرية والاستقلال.

وموقف جلال في «مريم الحكايا» شبيه بموقف رشود، إذ ادعيا كلاهما أنهما مع تحرّر المرأة من قوقعة التقاليد، فيتضح أن خطابهما هذا لا يمتّ بصلة إلى حقيقة تفكيرهما. حين خطب جلال ابتسام ادّعى أن ماضيها لا يهمه، ولا يهمّه من عشقت قبله، فكلّ ما يهمّه هو الحقيقة والحاضر. وحين صدّقته ابتسام وأطلعته بصدق على كل ماضيها، تغيّر تماماً. ظهر على حقيقته، حقيقة الرجل الذكوري التقليدي، الذي يعتبر أن سلطته وسيطرته على المرأة تثبتان رجولته، وأن الحرية الجنسية من حقّه وحده وليست من حقّ المرأة، وأن الزوجة يجب أن تأتيه بكراً وإلا اعتُبرت عاهرة. وكلام أهله يعكس أيضاً هذه العقلية. حينذاك تحوّل إلى رجل قاسٍ شديد الغيرة والانتقام، لا يحترمها ولا يثق بها، يمنعها حتى الاتصال بصديقاتها. وتزداد قسوته أمام أسرته، أمام أمه التي تقول إن على الرجل أن «يشلح» زوجته إذا لم تكن «منيحة» كما «يشلح صباطه»، وأمام أبيه الذي يكرّر أن «المرا مثل السجادة العجمية، كلما الواحد ضربها ودعوسها بتجوهر.» ويأخذ جلال بنصيحة الوالد، «فيدعوس» زوجته ويضربها حتى «تمسح جسدها» ونحلت وذابت وتسمّر الخوف في عينيها. وإذا طالبت بالطلاق هدّدها بحرمانها من أولادها. فباتت تشعر أنها لا تعرف هذا الرجل الذي ينام بجانبها كما أنه هو لا يعرفها.[٢١] ويتّضح لابتسام أن هذا الرجل الذي ادّعى التحرّر والانفتاح تجمّعت في جسده وعقله وعضوه الجنسي كل قرون الذهنية والتقاليد الماضية. فخطابه هو خطاب والده وأجداده وأسلافه منذ أقدم العصور. وحين تقصّ ابتسام على صديقتها تفاصيل زواجها التعيس تؤكد لها الصديقة أن حكاية زواجها ليس حكايتها هي وحدها،

(١٨) المصدر السابق، ص ٨٦–٨٨.
(١٩) المصدر السابق، ص ٩١.
(٢٠) المصدر السابق، ص ٩٠.
(٢١) صبح، مصدر سابق، ص ٢٨٣–٢٩٧.

وإنما «سمعت الكلام نفسه من هدى وجمانة وسميحة ومن أسماء كثيرة أخرى.»[٢٢] وكأن ما توحي به الكاتبة هنا باسم إحدى بطلاتها هو أن خطاب الرجل الشرقي حول المرأة لم ولا يتغيّر، مهما ادّعى، فهو لا يزال هو هو كما كان منذ قرون. فالمرأة بالنسبة إليه تكون إما عذراء طاهرة، كما تخيّل رشّود أن تكون زوجته قبل أن يكتشف الحقيقة، وهكذا تزوّجها، أو تكون مومساً، كما اعتبر جلال زوجته حين أطلعته على ماضي علاقاتها، فعاملها كالمومس. فإن تزوّج الرجل المرأة المتعلمة الذكية المتحرّرة يعتبر أن تحرّرها ذهني ثقافي فقط، وليس جسدياً أيضاً. وحين يكتشف أنها ليست العذراء التي توهّم، يعاملها كمومس، بكل ما يرافق هذه التسمية من احتقار وإذلال وقهر.

أما رشّود فكانت ردّة فعله على موقف زوجته مختلفة، كما كانت، بالطبع، مختلفة عن ردّة فعل القروي حسن. لم يكن رشّود قد اكتشف، بعد، أنه ليس أوّل من نام مع زوجته. قابلته زوجته ببرود ورفضت أن تنام معه حين يريد، فاضطرّ إلى الاستمناء متى التصق بها في الفراش،[٢٣] ولم يغتصبها، شأن حسن. وحين تنهره زوجته يعتذر إليها ويحاول أن يسترضيها، مع أنه يعرف أن الحق معه.[٢٤] لا ريب أن الضعيف يريد أن يُظهر هنا أن تصرّف راويته هو تصرّف الرجل المتمدن اللائق. إلا أنه يبيّن أيضاً أن رشّود أصبح ألعوبة في يد مثل هذه الزوجة، تفرض عليه شروطها ورغباتها، يتذلّل لها ليسترضيها فيما تقابله ببرود، إلى أن يفقد شخصيته وثقته بنفسه.[٢٥] يتجلّى ذلك، مثلاً، حين ذهب لشراء تلفزيون، مع أنه لا يحبّه، ولكنه اشتراه إرضاءً لزوجته التي تجبره على مشاهدته عند أهلها. خلال مناقشته مع التاجر حول ماركة «سوني أصلي» وغير أصلي،[٢٦] يتضح للقارئ كم فقد هذا الرجل كل ثقة بنفسه. فكأن الكاتب يوحي بأن المرأة إن تحرّرت يكون ذلك على حساب الرجل إذ يفقده تحرّرها شخصيته، رجولته، وحتى ثقته بنفسه. ليس الكاتب هو راوي روايته، ولكن يحقّ لنا أن نتساءل هنا: ألا نستشفّ من خلال كلام الراوي/البطل ما ينمّ عن موقف الكاتب نفسه؟ أولم يقل «بروست» إن الكتاب هو نتاج ذاتنا الأخرى المختلفة عن تلك التي نظهرها في عاداتها وفي المجتمع؟ مجرّد سؤال يخطر لنا ولا ندّعي معرفة الجواب.

ثمّ اكتشف رشّود أن التي تزوّجها لم تكن كما ظنّ. بذهنيته التقليدية التي ترفض

(٢٢) المصدر السابق، ص ٢٨٤.
(٢٣) الضعيف، مصدر سابق، ص ١٥.
(٢٤) المصدر السابق، ص ١٢٦.
(٢٥) المصدر السابق، ص ١٢، ٤٤، ٨٢.
(٢٦) المصدر السابق، ص ١٤–١٥.

الزواج من غير «عذراء» تخيّل أن حياء زوجته هو الذي كان يمنعها من إظهار حبها له، إلى أن ولجها من خلف فاكتشف أن غيره كان قد سبقه إلى ذلك المكان.[٢٧] واكتشف كذلك لماذا كانت زوجته تماطله خلال أسابيع رافضة مضاجعته. حين تمكّن من ولوجها في النهاية أخذت تنزف بغزارة، فعرف أنها كانت قد رتقت بكارتها مؤخراً وخافت أن يفضح النزيف حقيقة أمرها.[٢٨] فكان طبيعياً أن تثور ثورته، أن يستنكر تحرّر المرأة جنسياً، مع أنه لم يستنكر ذلك على الإطلاق بالنسبة له، الرجل، تشهد بذلك مغامراته العديدة قبل الزواج. فرشّود يرفض أن تحبّ المرأة للحبّ فقط، لا لكي تتزوج وتنجب.[٢٩] فالمرأة بالنسبة له أداة حمل وإنجاب، تماماً كما هي بالنسبة لأبي يوسف وأبي طلال وأبي أحمد القرويين. ولذلك أيضاً ثارت ثورة رشّود حين أجهضت زوجته نفسها خفية عنه،[٣٠] ثمّ تجرّأت على تطليقه بدلاً من أن يكون هو الذي يطلقها.[٣١] من ذلك يتضح أن خطاب الرجل حول المرأة لا يتغيّر، فهو هو، سواء كان الرجل من سكان المدينة ومتعلماً، أم قروياً جاهلاً بسيطاً.

وحين واجه رشّود الواقع الذي اصطدم بخطابه التقليدي المحافظ وبذكورته البطركية خلص إلى أن «هذا الكائن الجميل اللطيف الطاهر الأثيري الذي هو المرأة، يستطيع أن يلوي إرادة العفاريت التي تفوق الملوك قوة وحيلة ودهاء! وهذا التفوق ليس من أجل الخير، بل من أجل الشرّ. فهي لا تتفوّق عليها حتى تتحرّر من أسرها، بل حتى تثأر منها بمضاجعة رجال آخرين.»[٣٢] فعلى الرغم من كل ادّعاءاته حول رغبته في «خروج المرأة من القوقعة التي وضعتها فيها التقاليد،» لا يستطيع الرجل أن يفهم هذا الخروج إلا على أنه ذو علاقة بالجنس الذي لا يستطيع أن يتخيّل المرأة إلا من خلاله، لا خروج من تقاليد قد تكون أكثر تكبيلاً لها. فالمرأة تبقى بالنسبة للرجل التقليدي أداة لإشباع رغباته الجنسية، ليس إلا، وخطابه حولها لا يستوعب أن يكون لها وجود آخر مستقل، وأهداف أخرى في الحياة.

في «تصطفل ميريل ستريب» يبيّن رشيد الضعيف بوضوح عجز هذا الرجل عن قبول التغيير الذي طرأ على المرأة، وعلى علاقتها بجسدها وبالآخر، كما عجز عن اعتبارها كائناً كاملاً له عقل ونفس أيضاً، وأن بها رغبات غير الرغبات الجنسية. ولكن

(٢٧) المصدر السابق، ص ١٣٠–١٣١.
(٢٨) المصدر السابق، ص ٧٤–٨٠.
(٢٩) المصدر السابق، ص ١٢٤–١٢٥.
(٣٠) المصدر السابق، ص ١٤٧.
(٣١) المصدر السابق، ص ١٤٤.
(٣٢) المصدر السابق، ص ١٢٠.

يلفت نظرنا أن الكاتب نفسه لم يتعرّض لهذه الناحية الأخرى في شخصية المرأة، وأنه هو أيضاً ركّز فقط على العلاقات الجنسية وتحرّر المرأة الجنسي، وما تركه من تأثير في الرجل. ربما يكون ذلك لشعور رشيد الضعيف أن تحرّر المرأة الجنسي هو أكثر ما يصدم الرجل في مجتمعنا البطركي، كما تشهد جرائم «الشرف» التي تُقترف حتى اليوم في بلدنا، على الرغم من العقوبات التي تُنزلها القوانين عندنا بمقترفيها. أو قد يكون ذلك التركيز أيضاً ناتجاً عن فنّ رشيد الضعيف الروائي، إذ يركّز دائماً على نقطة أساسية في شخصية روايته ليستنفدها بحثاً وتحليلاً، كما نرى، مثلاً، في روايتين أخريين له، «فسحة مستهدفة بين النعاس والنومِ» أو «ناحية البراءة».

صحيح أن خطاب الرجال لا يختلف في الروايتين اللتين نحن بصدد تحليلهما، وأنهما كلتيهما يُشعران القارئ بأن الرجال أصحاب السلطة، أو هكذا ينبغي أن يكونوا، ولكن الفرق بينهما يظهر في أن رواية الضعيف تبيّن أن تحرّر المرأة أفقد الرجل قوة شخصيته وثقته بنفسه، فيما زاد تحرّرُها جلالَ قسوةً وتسلطاً في رواية علوية صبح.

فلننظر في خطاب المرأة عن المرأة في الروايتين، وهل اختلف عن خطاب الرجل، وإلى أي حدّ.

خطاب المرأة الزوجة والأم في الروايتين

هنا يتجلّى لنا الفرق بين خطاب الزوجة المدينية المتحرّرة وخطاب الزوجة القروية المحافظة. فخطاب الزوجات في «مريم الحكايا» هو إلى حدّ، خطاب أزواجهن حول المرأة. فهن أيضاً يعتبرن أن عليهن خدمة الرجل وطاعته، ليس إلا، وأنهن أداة للحمل والتوليد. وكذلك تنصح والدة جلال ابنها بأن «يشلح زوجته كما يشلح صباطه» إن لم تكن «منيحة» أي خاضعة ومطيعة. وعلى الرغم من أن فاطمة لا تمارس الجنس مع زوجها إلا مكرَهة،[٣٣] وتتمنّى لو أن الله خلق لها فقط فماً يأكل «وما خلق لي طيز»،[٣٤] على الرغم من ذلك تقول، مستسلمة، إن المرأة لا تستطيع أن تقول «لا » لزوجها، ثمّ «الواحده إذا ما خلّفت لشو حياتنا؟ هيدي الدنيا يا بنتي.»[٣٥] فاطمة تتبنى هنا خطاب الرجل، وعليه تعتزّ بعدد أولادها، تلد الولد بعد الولد، وهذا بالإضافة إلى إجهاضها عدداً من الأولاد، أو موت عدد في أحشائها.[٣٦] فالقروية تتبنى هذا الخطاب

(٣٣) صبح، مصدر سابق، ص ٧٣–٧٤.
(٣٤) المصدر السابق، ص ١٦٦.
(٣٥) المصدر السابق، ص ١٧٦.
(٣٦) المصدر السابق، ص ١٨٥.

لأن هذا ما نشأت عليه. أولم يرد في سورة الكهف (الآية ٤٦) «المال والبنون زينة الحياة الدنيا»؟ أولم تسمع الناس حولها، منذ أن وعت، يعتزّون بعدد أولادهم؟ وكيف لا يعتزّون والأولاد سواعد الأهل في الحقل، في كسب القوت، والبنات سواعد الأم في البيت؟ فكيف لا تعتزّ فاطمة بعد ذلك بأولادها؟

أما زوجة رشّود فأجهضت نفسها لأنها لا تريد أن تكون أماً. وهنا يظهر الفرق بين خطاب المرأة البرجوازية التي لا يحتاج زوجها إلى سواعد الأولاد لكسب الرزق، والتي يشغلها في عدد الأولاد ما لا يشغل زميلتها القروية: مصاريف تفرضها الحياة في المدينة وتخلو منها حياة القرية، التضحية بشيء من الراحة والرفاهية اللتين لا تعرفهما القروية. وإن رفضت زوجة رشّود أن تضاجع زوجها فلكي لا يكتشف أنها رتقت بكارتها. فيما كرهت فاطمة مضاجعة زوجها لأنها لم تستطع أن تنسى كيف اغتصبها طفلة. وتبيّن علوية صبح أن المرأة القروية تتبنّى النظرة نفسها إلى ابنتها التي تميّز خطاب الرجل، مقتنعة بتقاليد المجتمع وقيمه. فأكثر ما اعتزّت به فاطمة هو شهادة عذرية بناتها حين تزوجن، فكانت تحتفظ خلال سنين بآثار دماء عذريتهن على قطع القماش،[٣٧] مؤمنة كالرجال التقليديين تماماً بضرورة عذرية الفتاة قبل الزواج. إلا أنه لم يكن باستطاعة هذه المرأة إلا أن تقبل بهذه التقاليد كي لا يلحق العار بها وببناتها فيدفعن جميعاً الثمن.

أما أم نبيهة في رواية علوية صبح فكانت أرملة. فحين أحبت نبيهة ابن خالتها رفضت أمها أن تزوّجه إياها مدّعية أن أحداً لا يستحق ابنتها. ولكن هذه المرأة كانت، في الحقيقة، ترغب في إبقاء ابنتها معها، أولاً، لأنها تخاف أن تبقى وحدها، ثمّ لأنها أرادت أن تخدمها ابنتها حتى آخر حياتها.[٣٨] فلم تختلف نظرتها عن نظرة الرجل الذي لم يرَ في المرأة سوى خادمة رغباته.

وفيما تمرّدت زوجة رشّود على أوامر زوجها إلى أن طلقته قبل أن يطلّقها هو، نرى نساء «مريم الحكايا» خاضعات لأزواجهن، طائعات. ففاطمة تستأذن زوجها في كل أمر، حتى إذا أرادت أن تخبز أو تخيط فستاناً، لا سيّما بعد أن ضربها حين كانت لا تزال عروساً لأنها لم تخبره أنها ستخيط لباساً بعد أن تهرأ اللباس الذي كانت ترتديه.[٣٩] أما أم يوسف فتعتزّ بطاعتها العمياء لزوجها. حتى حين عقد أبو يوسف زواج متعة على نبيهة خافت أم يوسف أن تطيعه نبيهة أكثر مما تطيعه هي بما أن

(٣٧) المصدر السابق، ص ٢١٤.
(٣٨) المصدر السابق، ص ٢٥١.
(٣٩) المصدر السابق، ص ٣٠.

نبيهة في الخمسين ولم تتزوج، فيكون لديها «جوع للرجل» يجعلها تسمع كلمة أبي يوسف أكثر مما تسمعها زوجته.(٤٠) وعلى الرغم من طاعة أم يوسف العمياء لزوجها لم تسمع منه كلمة حلوة واحدة، ولا تجرؤ على إظهار حبها له، أو حتى تقبيله. لا تفعل ذلك إلا في حلمها، ولا تبكي إلا في الليل لتخفي حزنها.(٤١) وعلى غرار غيرها من النساء البسيطات الساذجات اللواتي يؤمنّ بالسحر والجن والشعوذة، لجأت أم يوسف إلى سقي زوجها بولها ودم حيضها إذ أكدت لها النساء أن ذلك يخضعه لها.(٤٢)

لم تعرف هؤلاء النساء لذة الحب في الزواج ولا خارجه، مثل ما عرفت زوجة رشّود. هذه كانت قد أحبت ابن خالتها، وقد فضّ بكارتها منذ مراهقتها، ولم تقلع عن هذا الحب حتى بعد أن تزوّج كل منهما.(٤٣) ويتساءل القارئ هنا ما إذا كانت المسلسلات التلفزيونية التي تشاهدها ابنة المدينة هي التي غذّت أفكاراً رومنسية عن الحبيب الأول وعن خلود الحب. أما القرويات فقد نفّسن عن رغباتهن المكبوتة بالأحلام أو بالهروب إلى عالم الخيال. فبدرية والحجة تميمة وكل النساء كنّ يحلمن بأنهن «يتشيطنّ» في المنام مع البيك أحمد الأسعد الذي «ينسحرن بهيبته وسلطة عينيه المشروحتين اللامعتين.»(٤٤) وحين أحبت تفاحة الجميلة جندياً فرنسياً لاكتها الألسن، فمنعوها مشاهدته، وزوّجها والدها أول من جاء يخطبها مدعياً أنه موظف محترم في فلسطين. وحين اكتشفت تفاحة أنه فقير معدم، وعاجز جنسياً فوق ذلك، أشبعت رغباتها الجنسية بمداعبة نفسها.(٤٥) أما سهيلة التي كانت نموذج الفتاة المحرومة من حب الزوج فعاشت حباً وهمياً تستوحيه من المسلسلات التلفزيونية، وتنسب إلى حياتها هي أحداث هذه المسلسلات وما فيها من مشاعر حب ومتعة.(٤٦)

فلا غرو أن تبكي فاطمة بعد ذلك يوم تزوّجت إحدى بناتها، فتقول إنها تبكي لأنها تعرف ما ينتظر ابنتها من عذاب، فالرجل صعب ولا يرحم، وابنتها ستظلم بالخليفة والوحام وسهر الليالي، لا تمون على حياتها أو جسمها أو وقتها: «بتصير مع الوقت تحت أوامر ولادا وجوزا، والكل يتحكّم فيها.»(٤٧)

(٤٠) المصدر السابق، ص ٢٣٨.
(٤١) المصدر السابق، ص ٢٣٨–٢٤٣.
(٤٢) المصدر السابق، ص ٢٥٣.
(٤٣) الضعيف، مصدر سابق، ص ١٠٩–١١٠.
(٤٤) صبح، مصدر سابق، ص ٢٠٦.
(٤٥) المصدر السابق، ص ١٨١–١٩١.
(٤٦) المصدر السابق، ص ١٣٨–١٤١.
(٤٧) المصدر السابق، ص ١٠٩.

ولكن رواية علوية صبح تبيّن أن لهؤلاء النساء المظلومات المقموعات خطاباً آخر أيضاً. علّمهن الكبت والظلم أن يدافعن عن أنفسهن بطرق غير مباشرة، أو أن ينتقمن لأنفسهن حين تسنح الفرصة. وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس كانت المراءاة. ففاطمة أصبحت «تنكر بلسانها وتوافق بقلبها، وتوافق بلسانها وتنكر بقلبها.»(٤٨) فالخوف من العم والخال في أول الأمر، ثم الخوف من الزوج، والخوف مما يفرضه عليها المجتمع، كل هذا الخوف جعلها تخاف أيضاً من الجهر بحقيقة أفكارها ومشاعرها. وأرى أنها بذلك تجسِّد الإنسان العربي، رجلاً كان أم امرأة. فهذا الإنسان حوّله إلى مراءٍ وكذّاب خوفه من قمع السلطات المتحكّمة به، سياسية كانت أم دينية أم قانونية أم اجتماعية. أولا نتذكّر ما حلّ بابتسام حين أطلعت جلال على الحقيقة؟!

ولكن حين لم تعد المرأة المقموعة تخاف ظلم من كان يظلمها، تنتقم منه انتقاماً يفجّر كل ما في قلبها من حقد مكبوت. فحين أصيبت والدة نبيهة بالفالج أخذت نبيهة تقسو عليها وتعاملها بفظاظة انتقاماً لنفسها من هذه الأم التي حرمتها الزواج ممن تحب.(٤٩) ونكّدت فاطمة حياة زوجها الذي اغتصبها طفلة فحرمها أن تعرف لذة المضاجعة، «كأنها تريد أن تنتقم منه وتنغّص حياته كما نكّد عليها طوال سنوات حياتها معه.»(٥٠) وحين فقد أبو طلال قوته الجنسية بعد أن شاخ ومرض، أخذت زوجته تسخر منه وتذيع بين النساء خبر عجزه الجنسي. كانت قد أُرغمت هي أيضاً على الزواج منه وهي في الرابعة عشرة وهو في الثلاثين، وكانت تهرب منه كلما اقترب ليضاجعها، إلى أن اغتصبها. وظلّت لسنوات طويلة ترتجف خوفاً منه. عشق غيرها، وتزوّج عليها، وحين احتجت أم طلال ضربها حتى فقدت وعيها. فحين فقد وظيفته ومرض، انتقمت بإهانته أمام الناس، وبالسخرية منه، بل بضربه أحياناً، ومع كل ضربة تذكّره ما عانت منه في الماضي، إلى أن تمنّى الموت وانتحر.(٥١)

ولكن بين القرويات أيضاً من لا تقبل بواقعها، فتتحدى التقاليد رافضة الخطاب التقليدي حول المرأة. فوالدة فاطمة تركت أولادها لتتبع قلبها وتلحق بعشيقها، ضاربة عرض الحائط بما يقول عنها الناس.(٥٢) فهذه، على نقيض ابنتها فاطمة فيما بعد، عرفت اللذة واستسلمت لها، وآثرت الحب على الواجب. ونبيهة التي حرمتها أمها الزواج ممن تحب أشبعت رغباتها الجنسية مع كميل، أهبل الضيعة، على الرغم من قذارته. شأنها

(٤٨) المصدر السابق، ص ١٧٩.
(٤٩) المصدر السابق، ص ٢٥٢.
(٥٠) المصدر السابق، ص ٦٩.
(٥١) المصدر السابق، ص ٣٥١-٣٦٤.
(٥٢) المصدر السابق، ص ١٣٦، ١٨١.

في ذلك شأن غيرها من الفتيات المحرومات المكبوتات في القرية، كواكب وديبة ونجيبة. إلا أنهن ضاجعنه خفية، ولم يعرفن أنه سيفضح أمرهن.(٥٣)

وفاطمة التي استسلمت لقدرها التعيس أرادت أن تنجي بناتها من مصير مماثل. فلم تقاوم زوجها وتتشاجر معه وهو يهدّدها بالضرب إلا حين أصرّت على تعليم بناتها، إذ اعتبرت «أن العلم سلاح في يد الفتاة كي لا يحكمها زوجها»(٥٤) كما حكمها هي ومثيلاتها من النساء الأميّات الجاهلات. وكانت السعادة الوحيدة التي عرفتها فاطمة سعادتها حين تخرّجت ابنتها مريم محامية. هنا يطلّ علينا في رواية علوية صبح خطاب مغاير لما وجدناه في رواية رشيد الضعيف حيث لا يذكر على الإطلاق اهتمام زوجة الراوية/البطل ولا اهتمام أمها بالعلم. فتبيّن علوية صبح كم كان العمل بالنسبة للمرأة المقموعة المظلومة وسيلة تحرّر بناتها مما وممَّن قمعها هي، وتحريرهن وتغييرهن، وكم كان الرجل التقليدي يرفض تعليم بناته خوف أن يتحرّرن ويشببن عن الطوق الذي قيّدهن به.

ثمّ، ألأنها أم من أمهات المدينة البرجوازيات المتحرّرات كانت حماة رشّود تنصرف إلى ما يلذّها، تقضي أوقاتها بمشاهدة التلفزيون، تغنّي وترقص وتستمع إلى أغاني صباح؟ لقد كرهت زوجها كما كرهت أزواجهن فاطمة وأم طلال وغيرهما، ولكن، على نقيضهن، لا تخضع له ولا تطيعه، وقد احتقرت زوجها لأنه لا يشبعها جنسياً، مع أنه كان طيّباً وكريماً وخدوماً، على نقيض أزواج القرويات، وكانت تعيّره بأنه ليس رجلاً. كذلك تصرّح بأنه ليس من الضروري أن يكون للمرأة زوج مهما كان الثمن.(٥٥) إنه خطاب زوجة وأم متحرّرة من النظرة التقليدية إلى المرأة ومكانتها في المجتمع. وقد تعدى تحرّرها الكلام إلى الفعل حين دافعت عن ابنتها الهاربة من رشّود، وحمتها وساعدتها على تطليقه. وفي نقمة رشود على هذه الأم تتجلّى نقمة الرجل على المرأة المتحرّرة من سلطته.

في مقابل هذه الأم نجد فاطمة، أم الراوية مريم. يقول عبده وازن إن هذه الأم «بمثابة الخيط الداخلي الذي استطاع أن يلحم حياة مريم المفككة والمبعثرة ويربط ماضيها بحاضرها وواقعها بأوهامها.»(٥٦) تلجأ زوجة رشود إلى أمها لتساعدها في تمرّدها على زوجها. هل تفعل ذلك كي لا تعيش ابنتها سعادة حُرمت هي منها؟ هل

(٥٣) المصدر السابق، ص ٢٤٥-٢٤٩.
(٥٤) المصدر السابق، ص ١٤١،٧٤.
(٥٥) الضعيف، مصدر سابق، ص ١٤٦-١٤٧.
(٥٦) عبده وازن، جريدة الحياة بتاريخ ٢٠٠٢/٥/٢٣.

تريد الرواية أن توحي هنا بالغيرة الدفينة في شخصية الإنسان، ولو أماً؟ فهذه الأم تختلف تماماً عن فاطمة أم مريم. فمريم تلوذ إلى أمها لتعرّفها إلى ذاتها، وذلك عبر ما تقصّ عليها هذه الأم من أخبار حياتها وعائلتها والجيران والضيعة والماضي. وعلى نقيض حماة رشود التي تعترف برغباتها الجنسية وبأن زوجها لا يشبعها، فتنصرف إلى حرمان ابنتها من رغبات حُرمت هي منها، أو تنصرف إلى رغبات أخرى يمكنها تحقيقها، نجد أن أم مريم «لا تعترف بجسدها ولا تعترف برغباتها. لم تعترف بحياتها بوجود أيّ لذّة. كل الرغبات واللذائذ تخاف منها وتنكرها، حتى لذّة الطعام.»[٥٧] فترفض أن تجلس إلى المائدة مع عائلتها، وأن تأكل اللحم الذي يأكلون من غير أن يصرّ أولادها على دعوتها إليه، كأنها تحسب أن ليس من حقها أن تأكل مثلما يأكلون. ثم تشعر بالظلم حين تجد أنهم لم يتركوا لها شيئاً منه.[٥٨] يخيّل إلينا هنا وكأن هذه الأم المظلومة تتلذّذ بإحساسها بالظلم رغبة منها في إثارة الشفقة، كما هي حال العديد من النساء المظلومات المغلوبات على أمرهن. وفي الواقع تؤكد ابنتها مريم أن حياة أمها كانت كتلة من الآلام، ولم تعرف السعادة. وإذا فرحت لسبب من الأسباب ترتعب وتقول: «الله يستر من هالفرحة.»[٥٩] كانت تحبّ بناتها ولكنها تخاف من معاملة زوجها كلما ولدت بنتاً، فتحاول أن تهدئ من غضبه بقولها إن البنت رزقة.[٦٠] ولكنها لا تعرف كيف تعبّر عن هذا الحب بالكلام. تعبّر عنه فقط بالتنظيف والجلي والطبخ. لم تكن كالوالدة في رواية الضعيف، تغني وترقص وتشاهد أفلام التلفزيون، وإنما كانت أماً تشتغل من الفجر إلى النجر. حين اقتربت منها ابنتها مريم لتقبّلها في عيد الأمهات، كما علّموها في المدرسة، نهرتها ودفعتها عنها تقول: «ما لقيتيش تيجي تبوسيني إلا وأنا غاطسة بالجلي وبالشحار، وعم فكّر بحياتي اللي راحت قرقطة وهموم وشغل من الفجر للنجر؟!»[٦١] فالتعبير عن العواطف ليس مما تألفه الأوساط الشعبية، إلا، ربما، في حالات الحزن على ميت.

غير أن في الروايتين خطاباً يتناول أيضاً المرأة التي ليست فقط زوجة أو أماً، سواء كانت في القرية أم في المدينة، خطاب الفتاة المتعلمة المتحرّرة.

(٥٧) المصدر السابق، ص ٣٨–٣٩.
(٥٨) المصدر السابق، ص ٣٨–٣٩.
(٥٩) المصدر السابق، ص ١٦٧.
(٦٠) المصدر السابق، ص ١٦٦.
(٦١) المصدر السابق، ص ٧٧–٧٨.

الخطاب حول المرأة المتحرّرة

حين كانت زوجة رشود لا تزال مراهقة تلذّذت بإصبع ابن خالتها تدخل في فرجها، تتحرّك فيه. دامت العلاقة بينهما سبع سنوات، وتطوّرت إلى علاقة جنسية، وقد وعدها ابن خالتها بأن يتزوّجها. ولكنه تزوّج غيرها، إذ كثيراً ما يرفض الرجل عندنا أن يتزوّج الفتاة التي يضاجعها قبل الزواج. والاهتمام بعذرية الفتاة قبل الزواج يظهر في اضطرارها إلى رتق بكارتها، والمسلمة إلى التوقيع على شهادة بعذريتها حين تتزوج، كما سنبيّن لاحقاً.

ولو عرف رشود أيضاً أن من تزوّجها لم تكن عذراء لما تزوّجها. وحين جادلها في علاقتها السابقة مع ابن خالتها وأكدت هي أن ما حصل في الماضي ليس مهماً، ثار مستنكراً: «ما يكون المهمّ إذا لم يكن مغامرات زوجتي الجنسية؟!»[٦٢] ففي كل ما يتعلق بهذه المرأة قبل زواجها لا يظهر رشيد الضعيف سوى اهتمام واحد من اهتماماتها، اهتمامها بالجنس.

أما الفتيات في رواية علوية صبح فمن نوع آخر. البطلة/الراوية مريم ولدت في القرية إلا أنها نشأت في بيروت، كصديقاتها ابتسام وعلوية وياسمين. فخطاب هؤلاء النساء هو، أولاً، خطاب جيل أصغر سناً من أمهاته، جيل انتقل إلى المدينة فعاش آفاقاً أوسع من آفاق القرية التي ولد فيها. وأهم من هذا وذاك، جيل أتيح له أن يتعلّم ويتابع دراسة جامعية ويعمل. فخطاب هؤلاء هو خطاب المرأة المتعلمة الثورية المناضلة الرافضة للواقع، تتحدّاه أملاً بتغييره. فياسمين كانت تناضل لتزيل الفقر،[٦٣] وعلوية وابتسام ذهبتا إلى جبهات القتال في حرب لبنان، تحارب علوية في الجبل ضد الإسرائيليين، فيما تحارب ابتسام مع المقاومة الفلسطينية.[٦٤]

وكنّ في الوقت نفسه متعلمات. مريم مجازة في الحقوق تعمل في مكتب محام شهير،[٦٥] وعلوية صحافية في مجلة نسائية ومنهمكة في كتابة رواية مستوحاة من حيوات الناس ورفاقها وذكرياتهم وشخصياتهم.[٦٦] ولا يهمّنا في هذا المجال أن تكون علوية التي في الرواية هي علوية كاتبتها، أو أن تكون مريم التي تروي لعلوية حكاياها كما روت شهرزاد، أن تكون مريم هذه ظلّ علوية أو لا تكون. إنما ما يهمنا هنا هو خطاب هؤلاء النساء.

(٦٢) الضعيف، مصدر سابق، ص ١٠٧-١٠٩.
(٦٣) صبح، مصدر سابق، ص ٣٣١.
(٦٤) المصدر السابق، ص ٧، ٨، ١٤، ٧٥.
(٦٥) المصدر السابق، ص ٣٢.
(٦٦) المصدر السابق، ص ١، ٨، ١٢، ٢٨٣، ٢٩٩-٣١٤.

كان خطابهن هو خطاب الثورة والتحرّر، وليس التحرّر الجنسي وحده، بل التحرّر من الطائفية، والتحرّر من كل التقاليد التي تكبّل المرأة. فخطاب مريم متأثر بخطاب أستاذتها عزّة شرارة، هو خطاب المرأة المتحرّرة من طقوس الشريعة التي تفرض على الزوج مهراً تعتبره البنت «ثمناً يدفعه من يشتريها.» وتثور على اضطرارها إلى اعتبار الشيخ وكيلها، وإلى التوقيع على شهادة بعذريتها![٦٧] وابتسام المسلمة أحبت كريم المسيحي. وبعد أن قُتل تحت دبابة إسرائيلية علي الذي أحبته مريم،[٦٨] ضاجعت مريم مصطفى الذي كان أول من فضّ بكارتها، ثم عباساً. فهن يحببن للحب، ويضاجعن إشباعاً لرغباتهن الجنسية، لا ليتزوجن وينجبن.

إلا أن خطاب هؤلاء النساء يتحوّل من خطاب ثورة وتحرّر إلى خطاب خيبة. فهؤلاء الفتيات ناضلن في محاولة أن يكتشفن فضاءات جديدة لأحلامهن وآمالهن وأجسادهن ومشاعرهن، وإذ بهن يصدمهن خطاب رفاق نضال لم يختلف عن خطاب آبائهم وأجدادهم. رفاق صدّقن أنهم متحرّرون ويريدون الحرية لهم ولهن، فيما لم يكونوا إلا «نماذج لانفصامات نفسية وفكرية وأجساداً تحمل في داخلها عصوراً مضت.» ولذلك اعتبروا رفيقاتهم المناضلات المتحرّرات مومسات «في علب ثورية» يستغلّونهن جنسياً.[٦٩] فحين اكتشف نبيل أن حبيبته ابتسام عذراء سألها مستغرباً: «معقول، أنت ثورية؟!»[٧٠] إذ افترض هؤلاء الشبان «الثوريون» أن البنات الثوريات مومسات وأن ما همّهن من الثورة هو التحرّر الجنسي فقط. فحتى الرجل الذي يدّعي التقدّم والتطوّر والثورية لا يستطيع أن يرى في المرأة إلا أداة للجنس. وكريم المسيحي الذي أحبته ابتسام حباً صادقاً وضاجعته، متحرّرة من قيود المجتمع والطائفية والشريعة، تركها ليتزوّج فتاة من طائفته.[٧١] فتتساءل ابتسام بمرارة: «هل يفصل الرجل في بلدنا بين الحب والزواج، بين الجسد والروح في المرأة؟ بين الأنثى والحب، بل بين الأنثى وجسدها؟... كيف يفهم الرجل الحب في بلدنا، هل يخاف منه، هل الحب بالنسبة له قوة أم ضعف؟ هل يقدر الضعفاء على الحب؟»[٧٢] وكأنها بخطابها هذا توحي لا بسبب إخفاق الرجال في الحب فحسب، بل بسبب إخفاقهم في كل شيء آخر: في الفكر والمجتمع والسياسة. فالرجل الذي يخاف حتى من الحب رجل ضعيف،

(٦٧) المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٦.
(٦٨) المصدر السابق، ص ٥٢-٥٣.
(٦٩) المصدر السابق، ص ٨٠.
(٧٠) المصدر السابق، ص ٩٣.
(٧١) المصدر السابق، ص ٩٢-٩٧.
(٧٢) المصدر السابق، ١٠١.

والضعيف يخاف من كل شيء، ولا سيّما من الحرية الفكرية الاجتماعية والسياسية. وإذا كان هذا النصف من المجتمع خائفاً وضعيفاً، يستحيل أن ينهض به النصف الآخر وحده. ألا تعود ابتسام لتسأل مريم: «قولك ليش كل شي راح، القضايا والأحلام والحب والعواطف؟ قولك كل شي كذب والاّ؟ بس والله حاولنا بصدق، ليش انهزمنا، ليش خسرنا كل شي؟»[٧٣]

وليس خطاب مريم مختلفاً. وعدها مصطفى بالزواج فاكتشفت أنه يخونها مع فتاة أخرى، فقطعت علاقتها به. وكان تعليق علوية: «مش معقولين الرجال!»[٧٤] ولكن مريم لم تتنازل، بعد، عن خطابها التحرري. تقيم علاقة مع عباس، ولا يهمها أنه متزوّج. إنها ترغب فعلاً بما ينتقده رشّود، أي أن تحب للحب، لا لتتزوّج أو تنجب. فتقول لعباس بصراحة: «بتعرف، طالع على بالي الحب.» وتبوح له بوحدتها، بضعفها، بشعورها أنها غير محميّة، مستباحة، فتصف تمتّعها بمضاجعته ورعشة هذه المضاجعة. إن كل ما تريده هو «رجل ليوم واحد في الأسبوع... لرجل يبقى عابراً في حياتي.» وهي تعي تماماً أنه لا يحبها، إنما يعشق ضعفها ليعيش إحساسه بقوته، وأحب حبّها له أكثر ممّا أحبّها.[٧٥] مرّة أخرى، حاجة الذكر إلى الشعور بسلطته وسيطرته على المرأة. لا شكّ أن الحرب التي جرفت القيم والقوانين والأخلاق، وقضت على كل استقرار في الحياة، أن هذه الحرب جعلت مريم تحسّ، كما أحسّ غيرها، بأن كل ما في الوجود عابر، وكذلك الحب. أولم تجعل الحرب حياة حبيبها علي عابرة؟ وحب كريم لابتسام، وحب مصطفى لها؟ فما دام كل شيء عابراً، ولا أمل في الاستمرار والديمومة، فلتتمسك بما في يدها ولو مؤقتاً، لتشعر أنها محمية وغير مستباحة، ولو مؤقتاً أيضاً. هذا ما تبيّنه بعدما حملت من عباس وأجهضت نفسها إذ تعرف جيداً أنه لن يتزوجها، فظلت على علاقتها به وتقول: «تحوّلت تلك العلاقة إلى حبل خلاص لا أريد قطعه، حبل خلاص لذاتي، ليس إلا.»[٧٦] فما دامت تحب، يعني أنها تعيش، أنها ليست ميتة، إذ تلاحق فكرة الموت كل من عاش أحداث الحرب المدمّرة التي عاشتها مريم وصديقاتها.

ويبقى خطاب علوية، علوية الكاتبة التي هي إحدى شخصيات الرواية والتي هي علوية كاتبة الرواية أيضاً. وهنا لا تترك لنا الكاتبة مجالاً للشك بأن إحدى شخصيات روايتها هي كاتبتها أيضاً، ولو أن الكاتبة أظهرت ذلك من خلال بنية فنية رائعة. فعلوية الحقيقية تقول في مقابلة لها: «كل ما له علاقة بعلوية [في الرواية] هو حقيقي. زهير

(٧٣) المصدر السابق، ص ١٠٢.
(٧٤) المصدر السابق، ص ٥٦–٦٠.
(٧٥) المصدر السابق، ص ٣٣–٣٦.
(٧٦) المصدر السابق، ص ٢٧٠–٢٧٣.

ذاكرتي الثقافية، ومريم ذاكرتي الحياتية... زهير المثقف الحداثي عجز عن أن يكتب الحرب. فالمتغيّرات كانت أسرع منه. زهير هو توأمي. وعليه أن يختفي في آخر الرواية. على أحدنا أن يختفي... في كتابتي عن الحرب أختزن صدمة الموت، وأحاول النجاة والعيش عبر الكتابة، لكي أوقن بأنني أعيش.»[٧٧] ولذلك تقول صديقتها ابتسام في الرواية إن علوية «تعيش الحياة وتكتشفها بالكتابة. إن لم تكتب كلمة «هواء» لا تتنفس. وإن لم تكتب كلمة «وردة» لن تتذكر أن في الحياة ورداً.»[٧٨] وتؤكد علوية لصديقتها مريم أن الفراغات الكبيرة التي تملأ صدرها ستقتلها، وأنها لن تستطيع أن تكتب لتكتشف ما إذا كانت على قيد الحياة إلا متى أفرغت الفراغات التي في صدرها. «ولكن، كيف تخرج، يا مريم، إن لم أفهمها؟ لقد امتلأ صدري بها لسنوات طوال، وما يحزنني أنني ربما أحتاج لسنوات أطول لأتخلّص منها.»[٧٩] فخطابها هنا هو خطاب الكاتبة وما تعانيه خلال سنين وهي تسبر أغوار نفسيات شخصياتها في محاولة أن تفهم، أن تعرف، أن تستوضح ما يدور في ذاتها وفي الذوات الأخرى. وحين لم تطلع علوية على صديقاتها بالكتاب الموعود، ظنّت مريم أنها خافت من الكتابة و«أن تخاف من الكتابة فهذا يعني أنها صارت تخاف من الدنيا.»[٨٠] فتبيّن علوية من خلال ذلك المخاض الطويل الذي تحتاج إليه الكتابة إذا أرادت أن تكون صادقة ومخلصة، كما تبيّن كل ما يرافق هذا المخاض من توتّر وخوف وقلق. ألم تقل في إحدى مقابلاتها: «لا شيء يرضي الكاتب إلا حلمه بما يريد أن يكتبه. وليس حلمه أبداً ما يريد أن يكتبه، أو ما أنجزه.»[٨١] فخطاب علوية هنا هو خطاب امرأة لم تشغلها ملابسات الحب والزواج، وإنما شغلتها هموم مهنية وفنية وأدبية، هموم الكاتب وطموحاته ومخاوفه وخيباته.

إن هذا سبب من أسباب خوف علوية. إلا أن خطابها بكامله هو خطاب الخوف: «أحسّ أن الخوف مزروع حولي وبداخلي وكيفما تحرّكت.»[٨٢] خوف الحرب وذكرياتها، خوف أن لا تكتب ما تريد كتابته ومثلما تريد، خوف الرجال والنساء حولها، خوفهم بعضهم من بعض وخوفهم مما في أعماق ذواتهم. والفصل التاسع بكامله هو خطاب المرأة الكاتبة التي تصبح كتابتها هي الحياة ومبرّر وجودها والبرهان على هذا الوجود. فالشخصيات والأحداث التي تكتب عنها تلاحقها ليل نهار، يلاحقها التفكير فيها

(٧٧) في مقابلة لها مع عناية جابر، السفير، بتاريخ، ٢٠٠٢/٥/٢٤.
(٧٨) صبح، مصدر سابق، ص ٢٨٣.
(٧٩) المصدر السابق، ص ٤٠٦.
(٨٠) المصدر السابق، ص ٤١٦.
(٨١) من مقابلة أجرتها معها غادة كلش، الكفاح العربي، بتاريخ ٢٠٠٢/٦/٤.
(٨٢) صبح، مصدر سابق، ص ٤١٨.

وهمّ تدوين ما قالوا وما حدث، فتتساءل بقلق وخوف: «من هم هؤلاء الذين يطاردونني ويلاحقونني، لأحكي لهم حكاياتهم وهم لن يصدّقوا إلا القصص التي يخترعونها لأنفسهم. بل بودّي لو أعرفهم جميعاً، لأقتلهم جميعاً، وأرتكب جريمة، جريمة قتل المؤلف لكل أبطال روايته، واحداً واحداً.»[٨٣] فحين تفهمهم جميعاً ألا يعني ذلك أنها تكون قد قتلتهم جميعاً أي أنها تكون قد انتهت من كتابة روايتها، فتشعر أنها هي وما تكتب أصبحا شيئاً واحداً؟ تقول: «شردت بذهنها لتتذكّر إذا كانت الذكريات ذكرياتها، أم ذكريات الأبطال... شردت لتتأكد من وجهها بين الوجوه التي تقرأها.» ولكنها «لم تتأكد من شيء. لم تتأكد من شيء.»[٨٤] وتنتهي الرواية بهذه الصرخة، صرخة الشكّ والقلق والخوف الذي كان شريان الرواية بكاملها.

وإلى جانب الخوف، وربما من مسبباته، نجد خطاب المرأة المتحرّرة المحبطة التي اصطدمت أحلامها وآمالها التحرّرية بواقع عجزت عن تغييره، فانكفأت عائدة إلى ما أرادت التحرّر منه، راضخة لتقاليد المجتمع الذي يفترض أن تتزوج الفتاة، أياً كان هذا الزوج، وأن يكون لها رجل يحميها. حين تتفق ابتسام على زواج عقلاني تقول: «أليست العائلة أهمّ من الحب، بعدما راح الحب؟ وبعدما انهزمنا في كل شيء؟ وماذا أفعل إن لم أتجوّز؟ هل أملك القدرة على أن أحبّ مرّة أخرى، وأخوض علاقة تفضي بي إلى مجهول آخر؟... أحتاج إلى رجل يتقبّلني ويحبّني بصدق ويحتويني.»[٨٥] إلا أن الأحداث اللاحقة تُظهر أن هذا الزوج لم يتقبّلها ولم يحبّها بصدق. وكأننا نستشفّ من ذلك خطاب من ترى أن الزواج التقليدي لا يحقّق الآمال المرجوّة، كما لا يحقّقها حبّ المرأة الصادق لمن لا يؤمن بمثل هذا الحب، وأن المرأة عندنا محبطة ومقموعة مهما فعلت.

أما ياسمين المناضلة فبدأت تخاف من اختلافها عن الآخرين بعدما شعرت بعجزها عن تغييرهم، فتحجّبت ووجدت أن التحجّب مثل بقية نساء الحي أشعرها بالأمان والراحة. لم تعد هي المسؤولة عن أعمالها، كما في السابق، وإنما أصبح رجال الدين الذين يعظونها هم الذين يتحمّلون المسؤولية.[٨٦] وابتسام التي صدمتها ذهنيّة نبيل وطائفية كريم اللذين أحبّت، عقدت زواجاً تقليدياً تعيساً واقتنعت بأن «ليس من حقّها التعبير عن رغباتها... وأنها إن لم تقتنع تتعذّب.»[٨٧] فخضعت لزوجها ولرغباته. ومريم عادت في نهاية المطاف لتتزوج قريبها أمين في كندا بعد أن كانت قد رفضته

(٨٣) المصدر السابق، ص ٢٩٩.
(٨٤) المصدر السابق، ص ٤٢٥-٤٢٦.
(٨٥) المصدر السابق، ص ٨٣.
(٨٦) المصدر السابق، ص ٣٣٠-٣٣٦.
(٨٧) المصدر السابق، ص ٦١.

منذ خمس وعشرين سنة لأنها لم ترد أن تتزوّج قريباً، بل أن «ترفرف بجناحيها» خارج العائلة.[٨٨] فعجزت عن الرفرفة، وعادت مهيضة الجناح. تقول ابتسام بمرارة ناطقة بلسانهن جميعاً إنهن كنّ يحلمن أنهن سيغيّرن الدنيا، «بعدين بتكرّ الأيام ومنفيق يوم وبنلاقي أنه نحنا يللي عم نتغيّر والدني بعدا متل ما هي.»[٨٩] وقد تغيّرن في الواقع، ولكن لا التغيير الذي كنّ يطمحن إليه. وحين تقرّر مريم السفر إلى كندا لتتزوّج أميناً تؤكد لها صديقاتها أن الهجرة أفضل لأن هناك دولة تحمي مواطنيها. فهنا، من يحمي المرأة؟ «الواحدة منّا أهلها بينهشوا فيها شويّ، والناس شويّ، وولادا شويّ، والشرع شويّ. ما إلها الواحده حدا يحميها. ما في حل للمرا إلا بقوانين مدنية تحميها.»[٩٠]

إن هذه الجملة تلخّص خطاب المرأة في رواية علوية صبح. فالقانون المدني وحده يرفع عن المرأة إجحاف الشرائع الدينية، ويحقّق المساواة التامة بين الرجل والمرأة، وبين جميع المواطنين على خلاف طوائفهم. حينئذ فقط يمكن أن تشعر المرأة بالأمان لأن قانوناً وضعياً يحميها.

إلا أنني أرى خطاباً آخر إلى جانب هذا، خطاباً مبنيّاً على الواقع، لا على آمال مستقبلية. هو خطاب المرأة المبدعة التي ترى أن الكتابة، أو أي إبداع آخر، يمكن أن ينجيها من الإحباط. فبين سائر الصديقات الثائرات كانت علوية هي الوحيدة التي لم تتنازل عن هدفها، لم تقبل بما كانت قد رفضته سابقاً، بل أنجزت ما كانت تخطّط له منذ أول المسار. وإذ بروايتها الرائعة بين أيدينا الآن.

نستخلص من هذا كله أن بين رواية كتبها رجل ورواية كتبتها امرأة أوجه شبه وأوجه اختلاف فيما يتعلّق بخطاب المرأة.

تتجلى أوجه الشبه في أن الروايتين تُظهران أن خطاب المرأة في فم رجل هو خطاب مَن لا يرى فيها سوى كائن دوني ينبغي أن يخضع لإرادته وسلطته، وأن يشبع غرائزه الجنسية وينجب أولاده، سواء كان هذا الرجل قروياً بسيطاً أم من رجال المدينة المتعلمين الذين يدّعون الحداثة والتحرّر السياسي والاجتماعي والطائفي. فالرجل يرى أن التحرّر على أنواعه من حقّه هو وحده، وتُظهر الروايتان أن ذهنيّة التسلط والفحولة المتوارثة أباً عن جدّ لم يغيّرها العلم ولا حياة المدن ولا ادّعاء تبني مبادئ سياسية

(٨٨) المصدر السابق، ص ٣١٧.
(٨٩) المصدر السابق، ص ١٠٣.
(٩٠) المصدر السابق، ص ٢٨١.

تقدّمية. فبسبب هذه الذهنية لا يرى الرجل في المرأة نواحي فكرية وعاطفية وإنسانية أخرى، ولا يستطيع أن يقبل التغيير الذي طرأ على المرأة المتعلّمة المتحرّرة. هذا هو الثابت في خطاب الرجل في الروايتين. وثابت آخر هو أن المرأة كإنسان، تلجأ إلى وسائل مختلفة تعوّض بها عن إحباطها الجنسي والعاطفي. فالمتغيّر في الوسائل، لا في محاولة التعويض.

إلا أن الاختلاف يظهر في الفرق بين خطاب الرجل وخطاب المرأة في الروايتين، كما يظهر المتغيّر والمتفاعل فيهما. فالرجل الذي يتحدّاه تحرّر المرأة فقد ثقته بنفسه في رواية الضعيف، على نقيض الرجل في رواية صبح، من القرية كان أم من المدينة. فهذا زادت قسوته على المرأة وكأن هذه القسوة كانت وسيلته للحفاظ على ثقته برجولته، بفحولته، بنفسه.

ويظهر الاختلاف بين الروايتين أيضاً في خطاب المرأة نفسها. فالأم في رواية الضعيف غير الأم في رواية صبح. فللمرأة البرجوازية التي ولدت ونشأت في المدينة في رواية الضعيف رغبات مخالفة لرغبات الرجل، تظهرها وتحقّقها، ولو أن الضعيف يحصر هذه الرغبات وتحقيقها في اللهو والجنس. تظهر هذه الأم تحرّرها في مساعدة ابنتها على الإجهاض والطلاق من زوج لا تريده. أما الأم في رواية صبح، فقد تتبنّى أحياناً خطاب الرجل، إلا أنها أم لا تُظهر رغباتها ولا تحاول أن تحقّقها بالنسبة لنفسها، بل بالنسبة لبناتها. هذه الأم تُظهر تحرّرها في إصرارها على تحرير بناتها، لا من الجنين والزوج، بل من الجهل والاتّكالية، تحريرهن بواسطة العلم والعمل. فبيّنت صبح أن المرأة الأميّة القروية، ونتيجة ما عانت من قهر وحرمان، قد تكون تقدمية وحديثة بأرقى ما في الكلمتين من معنى.

وقد انعكس هذا المتغيّر خاصة في بنات هؤلاء الأمهات. ففيما تقتصر اهتمامات بطلة رواية الضعيف على علاقات الحبّ ومشاهدة المسلسلات التلفزيونية، أظهرت رواية صبح أن تحرّر هؤلاء الفتيات لم يقتصر على الجنس، وإنما كان أيضاً تحرّراً اجتماعياً وسياسياً وفكرياً. وحين عجزن عن أن يحقّقن لأنفسهن ما كنّ قد طمحن إليه من حريّة ومساواة ما دام المجتمع مجتمعاً تسيطر عليه سلطة الذكر وما يرافقها من تقاليد وقيم وذهنية، أدركن أن القانون المدني وحده يستطيع أن يحقّق الطموحات التي ناضلن من أجلها. والإحباط الذي دفع بعض بطلات صبح إلى الانكفاء والرضوخ لتقاليد المجتمع، جعل بطلتها علوية تعبّر عن خطاب آخر: خطاب المرأة المبدعة التي تقدّم لنا الرواية الرائعة التي بين أيدينا. في هذا أرى الفرق بين خطاب المرأة في رواية كتبها رجل وبينه في رواية بقلم امرأة.